دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة السابعة: الحركات الإصلاحية في بعدها الديني

ج1

تمهيد/ عرفت كلمة إصلاح[1] تطوراً خلال القرن التاسع عشر، من حيث دلالتها المفاهيمية، حيث أصبحت تطلق على الاتجاهات الفكرية والحركات السياسية والاجتماعية التي ظهرت في العالم الإسلامي، بهدف تغيير الأحوال السياسية والاجتماعية.
فلم يعد مصطلح الإصلاح مجرد حركة دينية ترمي إلى حماية الإسلام، بل صار أيضاً نداء من أجل التقدم والبحث عن مستقبل أفضل، وجاءت هذه الرغبة نتيجة الوعي بالتأخر أو بالأزمة، والفعل الإصلاحي يهدف لإلغاء وتقليص المسافة والفارق ما بين الواقع الذاتي القائم، وذلك القياس النموذجي.

مفهوم الإصلاح اصطلاحا: لقد سبق وأن تطرقنا إلى مفهوم الإصلاح في محاضرات سابقة، سواء أتعلق الأمر بمخرجات اللفظ لغويا، أم من حيث أبعاده الدلالية، غير أننا نضيف بأن المراد به هنا، ما أعربت عنه دعوات الإصلاح؛ التي شهدها العالم الإسلاميّ في العصور الحديثة، وحدَّدتْ أهدافها ضمن محاولات التجديد والبعث للحضارة الإسلاميّة، في مواجهة التحديات الأوربيّة، الغازية بجيوشها وبضاعاتها، وأنظمتها وأفكارها.

---

[1] - الإصلاح الديني، لفظ ظهر في أوربا، ويطلق على الحركات الإصلاحية الدينية التي شهدتها القارة العجوز خلال القرن 16م، وتزعمها دينيون تأثروا بأفكار الحركة الإنسانوية، حيث برز مجموعة من المثقفين، أمثال الهولندي ديدي إيراسم، والفرنسي فرانسوا رابلي، والإنجليزي توماس مور منحوا قيمة إنسانية للفرد، ورأوا فيه طاقة قادرة على التحرر من الموروثات الجماعية، وعلى الخلق والإبداع في مجالات الفكر والفن،وكانت هذه الحركة الأدبية، قد ارتكزت على الرصيد الفكري الإغريقي القائم على تحكيم العقل، واستندت إلى تقنية المطبعة التي ساهمت في بلورة هذه الثقافة الجديدة ونشرها، فوجهوا عدة انتقادات للكنيسة الكاثوليكية، وطالبوا بإصلاح ديني يواكب التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كتمهيد طبيعي لولوج أزمنة الحداثة.
لقد شكل الإصلاح الديني، الذي قسَّم أوروبا المسيحية إلى كاثوليكيين وبروتستانتيين، تجربة "فريدة" من الناحية التاريخية، كما يقول المؤرخ البريطاني يان كامرون، "إذ لم يسبق لحركة دينية، احتجاجية أو إصلاحية، منذ العصر القديم أن كانت على درجة كبيرة من الانتشار والصمود، ومن النقد العميق، ومن الهدم وإعادة البناء، كما كان لهذه الحركة ".

يرى الباحث علي أومليل، أن مفهوم الإصلاح يختلف بين السلفيين التقليديين، والسلفيين المحدثين فبالنسبة للأولين، كان مفهوم الإصلاح يدور في مدار الفكر الديني، "وبالتحديد علاقة مجتمع المسلمين بالإسلام"، لذلك كان مفهوم الإصلاح عندهم لا يتعدى عتبة السلف الصالح، مرتبطا بالماضي وليس المستقبل تتحكم في طياته مواقف الأموات في مستقبل الأحياء، فالإصلاح بهذا المعنى، هو "إصلاح الفساد الحاصل في المجتمعات الإسلامية، بإعادتها إلى نصوص حاكمة لا تتبدل بالزمان، وإلى حقبة مثالية " ، بهذا يكون إصلاح الفساد من داخل الإسلام، بمعنى أن الإسلام يصلح ذاته بذاته من دون حاجة إلى إصلاح من خارجه.

إن الإصلاح في الفكر الإسلامي يكون واجبا كلما اتسعت الهوة بين الإسلام المعياري بمعنى إسلام النصوص الأساسية، وسيرة السلف الصالح، والواقع المجتمعي القائم، أي حين يتعمق الشرخ بين هذا الإسلام النموذجي من ناحية، وبين حياة المسلمين، الأمر الذي يستوجب الإصلاح، وذلك برد المجتمع المسلم إلى الإسلام.

كانت ردود الفعل الأولى عند المفكرين العرب، على مظاهر الانحلال والفساد والضعف التي أصابت مجتمعاتهم، ردودا دينية، وكانت أقوى الحركات الفكرية عندهم، وأكثر أصالة، هي الحركات الدينية، فقد أثار الجمود الفكري والتقليد الأعمى، لدى الأجيال المتعاقبة من علماء المسلمين، وما علق بالإسلام منذ أن أغلق باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري، من بدع وخرافات وضلالات، وجهل بأصول الدين والعبادات، عددا من العلماء المتنورين أدركوا الحاجة إلى الإصلاح، وإيقاف التدهور الديني والاجتماعي.

نماذج للحركات السلفية التجديدية:

أولا/ الحركة الوهابية:

بطاقة تعريفية بالمؤسس: محمد بن عبد الوهاب (1703-1791م)، أصيل بلدة العيينة بمنطقة نجد، نال تعليمه الديني الأول بمسقط رأسه، ارتحل إلى مكة، والبصرة، وبغداد، وعدة حواضر أخرى لطلب العلم انطلقت دعوته من بلدته، كان يستلهم من فكر ابن تيمية،

وابن قيّم الجوزية، تبنى المذهب الحنبلي، ترك العديد من المؤلفات في باب الاجتهاد الديني منها: - كتاب التوحيد – كشف الشبهات – الأصول الثلاثة – فضل الإسلام – كتاب الكبائر.

والوهابية، أخذت تسميتها من متزعم هذه الحركة الدعوية، وهي لفظة لم يطلقها أتباعه على أنفسهم وإنما أطلقها عليهم خصومهم، بينما هم يسمون أنفسهم بالموحدين ظهرت خلال النصف الثاني من القرن 18م بمنطقة نجد، وتحالفت سياسيا مع آل سعود مما مكنها من النجاح والتوسع، فانتشرت بشبه الجزيرة العربية، ومدت نشاطها إلى العراق وأطراف بلاد الشام، ودخلت في صدام عنيف مع السلطة العثمانية، التي عملت على تحجيم امتداد نفوذها جغرافيا، لكنها لم تفلح في منع عبور أفكارها إلى مناطق مترامية في العالم الإسلامي.

أصبحت هذه الحركة مصدر إلهام للحركات والدعوات الإسلامية في القرن التاسع عشر، ووجدت أفكارها أصداء في كافة أنحاء العالم الإسلامي، ويقول الباحث علي المحافظة متحدثا عن المنهج المتشدد الذي طبقه الوهابيون: " ومهما قيل في الحركة الوهابية ، فقد صدمت نفوس المسلمين بعنفها وشدة تصلبها ، وعدم تسامحها تجاه الطقوس والعادات السيئة عند مجموعة المسلمين، ورفضها للطرق الصوفية والمدارس السنية المعترف بها، ولذلك فقدت عطف وتأييد السنة ".

وعن الصدى الذي خلفته على مستوى الساحة الفكرية يقول محمد إقبال " لقد كانت الوهابية أول نبضات الحياة في الإسلام الحديث ، وقد كانت هذه الحركة مصدر الهام بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمعظم الحركات الإسلامية الكبرى في إفريقيا وآسيا ".

أطروحات الوهابية/ لقد هاجمت العادات التي كانت منتشرة في العالم العربي مثل التبرك بالأولياء والتمسّح بالمشائخ والتقرّب إلى الله بزيارة قبور الصالحين، واعتبر هذه العادات شركا، واعتبرت زيارة القبور بدعة بما فيها قبر الرسول (ص) ، وأنكرت بناء المآذن في المساجد والقباب على القبور، ودعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى فتح باب الاجتهاد، بعد ثمانية قرون من الانغلاق، فكان له فضل كبير في تحرير الفكر الديني عند المسلمين، ودعا إلى التقشف في العيش وإجبار المسلمين على الصلاة والزكاة، والقيام بأركان الإسلام بحذافيرها.

يرى الباحث شارل سان برو Charles Saint-Prot، أنه لا يمكن بأية حال تصور فكر محمد بن عبد الوهاب، على أنه مذهب خامس للإسلام، فقد أنكر الرجل بنفسه هذا الأمر، مؤكدا باستمرار بأنه تابع وليس مجددا، وقد أكد العديد من المتخصصين، احتواء دعوته على عناصر الحداثة: التشدد الأخلاقي، ورفض عبادة الأصنام والتعصب والجهل، والرغبة في إعطاء المسلمين ديناميكية اجتماعية وثقافية وسياسية، جديرة بعظمة ماضيهم.

يقول أحمد أمين: " لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية،كما فعل معاصره محمد علي باشا، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها فعنده أن العقيدة والروح وهما القلب، إن صلحا صلح كل شيء، وإن فسدا فسد كل شيء ".

//

المصادر والمراجع:

- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ط5، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987م.
- شارل سان برو، حركة الإصلاح في التراث الإسلامي، ترجمة أسامة نبيل، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013م.
- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت
- علي محمد الصّلابي، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، ط3، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 2009م.
- عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945م، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996م.
- فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ط3، دار الشروق، د.م، 1988م.